

نفسية الشعب المصرى من أغانيه

بقلم محمد محمد محمد الصيار

مدرس الجغرافية بجامعة فؤاد الأول

١ — أهمية الأغاني

حدث أبو بكر محمد بن داود الدينورى قال : كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافنى رجل منهم وأدخانى خباءه ، فرأيت فيه عبداً أسود قعيداً ورأيت قبائله إبلاً وجالاً قد ماتت وبقي منها جمل ناحل ذابل كأنه ينزع روحه ؛ فقال لى الغلام : « أنت ضيف . ولك أن تشفع لى عند مولاي ، فإنه مكرم لضيفه ولا يرد شفاعتك فى هذا القدر . » فلما أحضر الطعام قلت : لا آكل ما لم أشفع لهذا العبد . » فقال : « إن هذا العبد أفقرنى وأهلك جميع مالى » فقلت : « ماذا فعل .. ؟! » فقال : « إن له صوتاً حسناً ، وإنى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحملها أحمالاً ثقالاً ؛ وكان يحدوها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة من طيب نغمته ؛ فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل . ولكن أنت ضيفى فلكرامتك وهبته لك . » فأحببت أن أسمع صوته . فلما أصبحنا أمره أن يحدو بى على جمل قوى ليستقى الماء من بئر هناك . فلما رفع صوته هام ذلك الجمل ، فوقعت على وجهى فما أظن أنى سمعت قط صوتاً أحسن منه .. »

وسواء أكانت هذه القصة حقيقية أو موضوعة فإنها تدل — وأمثالها كثير — على ما للغناء من أثر ؛ فهو إحدى الوسائل التى تهيب النفوس للتسامى ، وتنزع بها إلى السكال ، وتثير فيها النشاط والقوة . حتى لقد قال أفلاطون : « من حزن فليستمع إلى الأصوات الجميلة ، فإن النفس يخمد نورها إذا حزنت ؛ فإذا ما استمعت إلى الغناء اشتعل منها ما خمد » فليس عجباً إذن أن نتخذ الأغاني التى يرددها شعب ما ويغرم بها ، سبيلاً إلى فهم نفسية هذا الشعب ، ونوراً يهتدى إلى الروح التى تسود فيه .

ولم تكن الأغاني في نشأتها عند أى أمة إلا ترجمة لعواطف شخصية ، أو تصويراً لشعور فردى خاص ، ولكنها بتطور الأمم أخذت تتدرج إلى التعبير عن خلجات عامة ، وإلى تصوير مشاعر جماعية ، ومن هنا كان سر انتشارها على الألسن وترديدها في جميع الأمكنة ، وذلك لأن العواطف الفردية فيها صادفت هوى في نفوس الجماعة فطربت لها ووجد كل فرد منها نفسه في تلك الأغنية ، التي لم تعد — بعد ذيوها — معبرة عن نزعة فردية ، بل أصبحت صدى لعواطف الشعب جميعه ، يستطيع منها دراسة نفسيته ، والحكم على شخصيته ، ومبلغ تكامل تلك الشخصية أو انحلالها وأصبح في مقدرة التاريخ التحليلي الحديث أن يتخذ من الأغاني « الشعبية » مصدراً هاماً يلقى ضوءاً غامراً على المقومات الشخصية للأمة ؛ ويحلل التيارات النفسية التي تتنازعها . وتوجه تاريخها الاجتماعى على وجه الخصوص . وفي هذا البحث « تمهيد أولى » — نفتح به الباب لمن يريد أن يلج به — في دراسة الأغاني الشعبية في مصر على ضوء ما وصل إليه علم النفس الحديث من آراء ونظريات ؛ و « محاولة مبدئية » لفهم نفسية الشعب المصرى من الأغاني التي تتردد على ألسنة أفراده . ولعل في هذه المحاولة استجابة لتلك الدعوة المباركة التي وجهها استاذنا أمين الخولى على صفحات العدد الأول من هذه المجلة « إلى الذين يرفعون القواعد من المدرسة النفسية في درس الأدب وتاريخه » فما الأغاني إلا لون من ألوان الأدب ، بل اللون الزاهى الوضاء من ألوانه .

٢ - ولع بالغناء

ولعل أهم ما يسترعى النظر غرام الشعب المصرى بالغناء إلى حد الوداع ؛ فهو يتقنى بكل شيء ... بالقرآن وبالأذان ؛ وبالطقوقة والموال ؛ بل ويغنى بالعبارات التي ليس لها معنى « كهيلا هوب هيلا » أو « هيلا ليصا ... هيلا ليصا » يتقنى بها جماعات العمال أثناء تأدية الشاق من الأعمال ؛ وهو يغنى في كل مناسبة ... في الأفراح والمآتم ، وفي حفلات الذكر والزار ؛ وفي اوقات العمل وأوقات الفراغ ؛ حتى أن

الباعة يابون إلا أن يعلنوا عن سلعهم بندااءات موقعة أجمل توقيع ، وأغنيات دقيقة الوضع ، شجيرة اللحن ، ولا ينسى الكثير منهم أن يستعين بفن الموسيقى إلى جانب فن الغناء فلبائع الدندمة زمارته ولساقى العرقسوس طاساته ولبائع غزل البنات أحراسه ؛ يوقع كل منهم على آلتهم المختارة فى مهارة واتقان . ويردد نداءه الخاص عذبا رقيقا أحيانا ، خشنا أجشاً فى معظم الأحيان ...

أحلى من المنعاد يا عنب	فللعنب عندهم : أبيض وجميل يا عنب
يا تين	وللتين : صلى وجمع بدرى
يا رطب	وللبلح : قنى علىّ وسال
يا لوبيا	بل ولفجل : أرضك طميه
يا لوبيا	من جنينتنا البحرية
يا لوبيا	الى بلا سنان
يا لوبيا	يا كل فدان

واكثر من هذا هناك من الأغاني ما يشتمل على أكثر من صنف من الأصناف
 يا تمرجنة رحلنا من منازلنا يا خوخ خنونا الحبايب وحننا ماخنا
 لمون لمونا العوارل وحننا مالنا يا نخل نخ المطايا للفراس والنوم
 يانبق نبقاش حبايب زى ما كنا

فما هو السبب فى حرص المصريين على هذا الجانب واحتفالهم به ؟ أجاب على هذا السؤال الاستاذ أحمد بك أمين فقال : « ربما كان سببه توالى البؤس على مصر عصوراً طويلة جعلت الطبيعة له متنفساً بكثرة الغناء وكثرة الموسيقى . ولذلك كانت الطبقة البائسة فى الأمة أكثر الناس ميلا إلى الموسيقى والغناء ؛ يغنون وهم يصنعون ، ويغنون وهم يسرون ... » ثم قال : « قد يكون هذا تعليلا يقال ولكنه لا يثبت على الامتحان ، فهل مصر أبأس من غيرها من بلاد الشرق ؟ وهل القاهرة أبأس من غيرها من القرى ؟ »^(١) وبالرغم من أن الأستاذ يقلل من أهمية التعليل الذى ذكره إلا أنه فى الواقع التعليل الوحيد ؛ أما احتجاجه بأن مصر

ليست أبأس من غيرها من بلاد الشرق فهو احتجاج غير صحيح . فليست قيمة البؤس بمظاهره وإنما بمبلغ الإحساس به ... قد تكون مصر فعلاً أقل بؤساً من غيرها ولكن الشعب المصرى شديد الإحساس بهذا البؤس ؛ ومن ثم كان التجاؤه إلى الغناء لينفّس به عن كربته ؛ ويخفف من آلام البؤس التى يحسها أشد إحساس

٣ - مناطق غنائية

يمكن أن نقسم القطر المصرى إلى أربع مناطق غنائية — إن صح مثل هذا التعبير — هى منطقة الدلتا فالوادي ثم الفيوم وسيناء ... هذه المناطق لا تختلف فى معانى الأغاني الذائعة فيها ، ولا فى الجوانب النفسية التى يمكن أن نعلمها منها ؛ وإنما يأتى اختلافها جميعاً من ناحية الموسيقى التى تصاحبها ، والألحان التى توضع فيها . فى المنطقة الأولى يسود « الموال » وآلة الأرغول التى تتفق معه ، والتى تتوافق نغماتها مع معانيه ، وتلك هى أهم مميزات الأغاني الشعبية « الريفية » أو أغاني الوجه البحرى ؛ أما فى الوجه القبلى فتتميل الأغاني « الصعيدية » فى موسيقاها نحو بلاد المغرب وربما كان للبدو دور هام فى هذه الصلة الفنية ، وفى الفيوم تظهر هذه الصلة نفسها ولكن بشكل أكثر وضوحاً . وهذا أمر طبيعى فى إقليم كالفيوم ينفصل عن الوادى أويكاد ، ليمتوغل فى الصحراء ويصبح أكثر شبهاً بواحة من واحاتها منه بجهات الوادى الأخرى . أما المنطقة الأخيرة وهى منطقة شبه جزيرة سيناء فأغانيها تختلف كل الاختلاف فى موسيقاها عن أغاني البدو فى الصحراء الغربية وأغاني الفلاحين فى الجهات الزراعية . ولكن أياً كان اختلاف الموسيقى المصاحبة للأغاني الشعبية فى جهات القطر المختلفة فهى كلها من النوع الرتيب الذى لا توجد فيه الاختلافات الواضحة المتلاحقة التى نجدها فى الموسيقى الغربية . وهذا أمر يتلاءم مع طبيعة المصريين كشعب يعيش فى حوض البحر الأبيض المتوسط حيث البيئة السهلة المتشابهة والمناخ المنتظم الرتيب ...

ويمكن أن يضاف إلى هذه المناطق الأربع التي ذكرناها منطقة خامسة هي منطقة القاهرة ذات المميزات الخاصة في أغانيها وموسيقاها التي أهمها اختلاط الألحان الشرقية بالغربية فيها . وسنحاول في هذه الدراسة الموجزة أن نتخير الأمثلة من جهات القطر المختلفة بقدر المستطاع إلا أننا سنستبعد تلك الأغاني التي تصنعها المدنية ثم تصدرها إلى بقية أنحاء البلاد فيما تصدر إليها من أشياء ، ذلك لأن مثل هذه في الأغاني لم تنشأ نشأة طبيعية ، بل وضعت لمناسبة خاصة . . . لتغنى في فيلم أولتعباً في أسطوانة أوليشدوبها أحد أصحاب الغناء فيما يقيم من حفلات ، ومن ثم كانت دلالتها النفسية فردية محضة ، إذا دلت على شيء فإنما توضح بعض الجوانب النفسية لقائلها . ولقد تشيع هذه الأغاني حيناً وتتردد في القرية تردها في المدينة ، ولسكنها لانتلبث أن تزول لأنها لم تصادف هوى أصيلاً في نفسية الشعب ، وإنما ردها في أول الأمر مدفوعاً بميله العام إلى التقليد ، ومشاركته الوجدانية لأبناء المدينة والمتحضرين . ومازلنا نذكر جميعاً كيف سادت أغنية « ساعة مابشوفك جنبي . . . » فترة من الزمن كانت تتردد فيها في كل مكان . وماهى إلا شهوّر أذاع بعدها صاحبها أغنيته الأحدث « حياتي إنت ماليش غيرك . . . الخ » حتى أخذت الأغنية الأولى تتقهقر تدريجياً لتحل محلها أحدثها وهكذا دواليك . وهانحن الآن نعيش في فترة « البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلي . . . » ولسكنها لن تلبث أن تصبح أغنية تاريخية يوم أن تظهر أغنية أخرى تنافسها في فيلم من الأفلام .

هذا بعكس الأغاني الشعبية التي لا نعرف من قائلها ، ولا متى قيلت ، ولا فيم كان قولها . ولكنها عاشت وأصبحت تتردد في الشمال والجنوب . فمن منا لم يردد أو على الأقل لم يسمع : « عطشان يا صبايا دلوني على السبيل » أو

ع الرمله وفرش منديله . كعب البنت ريال مدوّر .

ع الرمله والحلوه تجيله . أو ياما خلق ياما صور .

هذه هي الأغاني الشعبية الحقة التي يمكن أن ترسم في ضوءها الخطوط الأولى لنفسية الشعب المصري .

٤ - عقلية زراعية

يعيش الشعب المصرى فى بيئة زراعية ، معتدلة المناخ مع ميل للحرارة فى فصل الصيف ، ولكنه مناخ قليل الأمطار إلى حد لا تستطيع معه الزراعة أن تقوم بحرفة إلا بالاعتماد على مورد آخر للماء ، ومن هنا جاءت أهمية نهر النيل كأساس للحياة المصرية ، ومصدر لمدينتها .

مثل هذه البيئة الزراعية المعتمدة على الري تطبع سكانها بطابع خاص فهم شديدو الارتباط بالأرض التى هى مصدر رزقهم ، مضطرون إلى التعاون فى سبيل الحصول على الماء اللازم لريها ؛ فالحفاظة على الجسور ، وشق الترع والعناية بمشروعات الري المختلفة كلها أمور لا يمكن أن تكون فردية ، بل لابد لها من الأيدى العاملة الكثيرة تتعاون فى سبيل تنفيذها . ولا بد بعد هذا كله من قيام هيئة منظمة تشرف على تنفيذ تلك الأعمال ، وتعمل على توزيع المياه بالعدل . ولذا كانت الحكومة من أهم مستلزمات البيئات الزراعية من أقدم العصور .

ليس من الغريب إذن أن تطبع العقلية المصرية بالطابع الزراعى ، وأن تكون نفسية الشعب المصرى هادئة مستقرة هدوء مناخ الوادى واستقراره ، وأن تكون الروح السائدة فيه روحا اجتماعية تعاونية . وهذا فعلا ما تظهره أغانيه الشعبية فالكثير منها يعبر عن مبلغ الارتباط بالأرض والقرية ، والإحساس الشديد بالغربة وإن قصرت . وهل منا من لم يسمع :

بلدى يا بلدى والسَّلْطَةُ حَدَتْ ولدى

يا عزيز عيني وانا بَدَى أروح بلدى

وكثيرا ما تشيع فى تلك الأغاني فلسفة اجتماعية تصور مبلغ تماسك هذا المجتمع الزراعى ، وارتباط أفراداه ؛ وتوضح كيف أن كل عضو فيه يعمل لغيره كما يعمل لنفسه ؛ وعلى أساس هذا التعاون يقوم المجتمع . وخير ما يمثل هذه الفلسفة أغنية الأطفال الشائعة :

أقول لك حدوده فى الزيت ملتوته
 حلفت ما أقولها إلا لما ييجى صاحبها
 وصاحبها غ السطوح والسطوح عايزة سلم
 والسلم عند النجار والنجار عاوز مسمار
 والمسمار عند الحداد والحداد عاوز بيضة
 والبيضة فى بطن الفرخة والفرخة عايزة قمحة
 والقمحة فى الطاحونه والطاحونه عايزه لمونه
 والليمونه فى الجنينة والجنينة عايزة ميه
 والميه فى الواور والواور عاوز زيت ... الخ

يردد الأطفال هذه الأغنية الشعبية الطريفة ، فى صوت الطفولة الهادئ الوديع ،
 وهم لا يعلمون أى فلسفة عالية يرددونها ، وأية فكرة سامية يتغنون بها .

٥ - كبت ولكن !!

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن ... إلى آخر الآية » بهذه التعاليم وبأمثالها حدد الإسلام مدى اختلاط المرأة بالرجل ، وأخذت العادات والتقاليد مع مرور الأجيال تقوى من هذه الدعوة وتحرم اختلاط الجنسين . فلم يعد هناك مجال للتنفيس عن الغريزة الجنسية التى تعد أهم الغرائز المؤثرة فى الحياة الإنسانية ؛ تلك الغريزة القوية فى جو كالجو المصرى تساعد حرارته الشديدة على البلوغ المبكر ، وتساعد على تقوية الحساسية الجنسية عند الرجل والمرأة على حد سواء ؛ وفى بيئة تسود فيها عادة الختان للصبيان والبنات وما يترتب على ذلك من آثار . ومن ثم كان هناك صراع عنيف بين

الرغبتين المتعارضتين ، والدافعين المتناقضين ؛ دافع الانقياد للجماعة والارتباط بالقطيع الذى من أهم مبادئه المحافظة على الدين والخضوع للتقاليد السائدة ، ودافع الغريزة الجنسية القوى الملح . ولما كان الدافعان متعارضين فليس هناك مجال للتوفيق بينهما إلا بكبت النزعة الفردية ومنعها من السير فى طريقها الطبيعى ، وليس معنى هذا الكبت قتل النزعة بل إنها تظل قوية متحفزة للظهور إذا خف الضغط عليها ولكنها تبقى محتفمية فى اللاشعور وينشأ عنها عقدة تظل مكبوتة ولكنها تؤثر فى الشعور بطرق مختلفة .

أدت إذن النزعة الدينية وتقاليد المجتمع المصرى إلى كبح جماح الغريزة الجنسية ومنعها من الإفصاح عن نفسها إفصاحاً مباشراً ، ولكن بقيت دوافع هذه الغريزة مستكنة تحرك الفرد دون وعى إلى أنواع حجة من المشاعر والنشاط لتفصح بها عن نفسها مادامت قد حرمت الطريق الطبيعى لذلك الإفصاح . ويأتى فى مقدمة صور الإفصاح دائماً الألوان المتنوعة للأدب المكشوف والفن المكشوف كالصور الغارية والأغاني النابية ... الخ ولكن الأسباب التى حالت دون الإفصاح عن الدوافع الغريزية بالطريق الطبيعى تحول أيضاً دون الإفصاح بهذه الوسائل . وكان لا بد من استبدالها بمظاهر أخرى يألفها المجتمع وقرأها الدين ومن هذه المظاهر تصنع العفة وإظهار السخط على كل ما يتصل بالناحية الجنسية والنفور منه ؛ فمثلاً تردد الريفية - أغنية : « ع الزراعيه يارب أقابل حبيبي » فتجعل مقابلة الحبيب فى هذه الأغنية أمنية من أعز أمانيتها ، وتصورها صعوبة المنال تدعو الله فى لهفة أن يحققها لها ؛ وتخير الطريق الزراعى (الزراعية) مكاناً للقاء . وهى بلاشك تحاول من وراء أغنيتها أن تغطى موقفها فهى تقابل هذا الحبيب كل يوم ... فى الصباح وفى المساء ، فى طريقها إلى الحقل وفى عودتها من السوق . وهى تقابله على الطريق الزراعى بالذات فهو الطريق الرئيسى للقريه يسلكه هو إذا سرح بمواشيه وتسلكه هى إذا ذهبت إلى التربة بجرتها .

وقد تردد الأخرى :

هلا (أهلا) بالورد يا أمى هلابا يا ورد الشام يا مسلى الغلابا
يا بنت الناس الله يرحم جدودك سبيت الناس بحمار خدودك
وأنا العليل وصفوا لى نهودك يا ذن الله طاب الجرح طابا
هلا بالورد يا أمى هلابا ... الخ .
يا بنت الناس الله يرحم أباك جفاك الناس من قلة حياك
وأنا العليل وصفوا لى هواك يا ذن الله طاب الجرح طابا
هلا بالورد يا أمى هلابا ... الخ

هذه الأغنية التى ترددها البنات فى القرية تمثل ناحية مما تعتلج به نفوسهن ،
فهن لم يعرفن الحب صريحا خالصا ، ولم يساعدهن المجتمع الذى يعشن فيه على إشباع
غرائز التودد عندهن ، فرحن يحلمن بأن « حمار خدودهن » يسبى الناس ، وأن
نهودهن دواء يوصف للعليل فيطيب . ولكنهن لا ينعمن بأحلامهن طويلا حتى
يرين شبح التقاليد واقفاً لهن بالمرصاد فيسارعن فى الفقرة الثانية إلى النظر الموضوع
كأنه ضرب من « قلة الحياء » وأن الناس قد جفوها لهذا السبب . . .

ومن أحسن الأغاني التى تفصح فيها نزعة التودد عن نفسها الأغنية
الشعبية المشهورة

روّقُ القناني روق عينُ برق الخزام واسقيني يا عيني
قلت لها يا ست أوْريني على شعرك وفرجيني
قالت لى روحُ يامسكين دا شعري سلب جمال يا عيني
روقُ القناني روق عينُ برق الخزام واسقيني
قلت لها يا ست اوريني على قورْتك وفرجيني
قالت لى : روح يامسكين دا قورْتى هلال شعبان يا عيني

وتستمر الفتاة فى عرض مفاتن جسمها فتقول له روح يامسكين : « دا عيوني
عيون غزلان » « وخدودى ورد البستان » « ورقبتى كوز العطشان » « وصدري
بلاط حمام » ... الخ ...

ويلاحظ أن نزعات التودد هذه تظهر دائماً مقترنة بغريزة الحنو والرعاية في الأغاني الشعبية فهى حينما صرفته عنها في الأغنية السابقة قالت روح « يامسكين » وفي هذا الوصف « بالمسكنة » شعور منها بالعطف والحنو . وفي الأخرى .

فايت على دربننا والتمر في كمة

فايت على دربننا

غاروا عليه العوازل بحتروه منه

سايقه عليك النبي يامه تلمييه

دا جدع صغير وعيني بتخشى منه

فايت على دربننا .

فالهلع لإغارة العوازل والاستنجد بالأم لمعونته لأنه ما زال « جدع صغير » كل هذا يحمل أجمل ألوان الحنو والرعاية .

هذا الاقتران الشائع بين الغريزتين في الأغاني المصرية دليل قوى على صدق عاطفة الحب في البيئة المصرية . فهو حب خالص ، لا يقوم على مصلحة ، ولا تدفع إليه غاية . ومن ثم كان التزاوج في البيئة الشعبية — فى نظرى — قائماً على أساس سليم يضمن للحياة الانسانية سعادة ورخاء . فإذا لم تكن الحياة كذلك فيما يبدو لنا فلنبحث عن العلة فى ناحية أخرى غير الناحية النفسية .

٦ — قضاء وقدر ..

وتشيع فى الأغاني المصرية عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر

اللى انكتب ع الجبين لازم تشوفه العين .

وعدك ومكتوبك يا قلبى كان مخبى فين .

مادام كده قسمتك ؛ بختك أجيبه منين ؟!

سـلم أمورك يا قلبى وامثله لله .

واللى انكتب ع الجبين لازم تشوفه العين .

فنحن فى حياتنا تسيرنا قوة كتبت على جبيننا أوامر لابد لها من نفاذ . وليس
أماننا إلا أن نقف حياها مكتوفى الأيدى ؛ وأن نحنى لها رءوسنا مستسلمين . . .
ويرجع الإيمان بهذه العقيدة إلى أن الأحداث الكثيرة التى شهدتها الشعب المصرى
فى عصوره المختلفة ، وما عاناه ويعانيه أفرادها حتى الآن من شظف العيش ،
وما يتعرض له من الأخطار الكثيرة الناشئة عن الفقر والمرض العلتين المزمنتين فى
المجتمع المصرى ، ونجاته من هذه الأخطار المتلاحقة ، الكافية لإهلاكه وآلاف من
أمثاله ، كل هذا جعله يؤمن بالجبرية المطلقة ذلك الإيمان الذى هو فى الواقع فرار
يدفع إليه الجبن من مجابهة مشاكل الحياة والكفاح فى ميادينها المختلفة . وقد أدى
هذا إلى ذبوع أمرين : أولهما الدعوة إلى الصبر والحث عليه لأن الصبر مفتاح الفرج .
ولأن الأرزاق ليست بالسعى وراءها وإنما هى أمور مقدرة لابد منها .

الصبر طيبٌ ، ولو كان مُرٌّ نصبرُ لهُ
واللّٰى أكلُ حلوٍ أو كَلُّ مُرٍّ يصبرُ له
واجبٌ علينا لحكمِ الله نصبرُ له
والصَّبرُ عُقبه فرَجٌ أحلى مِنَ المنعَاذِ
والرزقُ ماهوشٌ بكثرِ الجرى .. دا أو عاَدَ .
كلام بترتيب من مدّة ثمود أو عاَدَ
واللّٰى انكتب على الجبين لابد نصبر له

ولابد للصّابر أن يغال مبتغاه مهما طالَت الأيام ، ولابد للمتعب من راحة يأتى
بها الصبر فى يوم ما .

هَلَبْتُ يا قَلْبى على طول الزمن ترتاحُ .
وتنولُ وصالَ اللّٰى تهوى ، وفيه ترتاحُ
مصيرُ جروحك على طول الزمن تبرى .
ويجئلك الطب ، لا تعلم ولا تدرى .
مثل سمعناه ، منقول عن ذوى الخبرة .
الصبر يا مبتلى ، جعلوه للفرج مفتاح .

أما الأمر الآخر الناشئ عن الإيمان بعقيدة القضاء والقدر ، فهو الاستسلام وقبول الحياة كما هي بحلوها ومرها ، وهذا أمر يؤدي دون شك إلى انعدام المثل العليا ويضعف من قوة المجتمع الانتاجية .

أضحك من الغم وابكى من صميم قلبي .

ونوح من الروح ، واكتم كل دافى قلبي .

وفضلت أكنم أسايا لما الزمن مال بي وأخاف من الخصم لو أسكت عليه يوم صابر عليك يا زمن ؛ دا احتكام ربي !

فهذا الصبر على الزمن ؛ وكنم الأسى على مضض ، فيه ذلة وخنوع . وكان الأحرى أن تنور على الزمن لنوقفه عند حده ، ولنصل رغم أنفه إلى المثل العليا التي نرسمها .

٧ - شعور بالنقص

والشعب المصري شديد الشعور بالدونية نتيجة لانعدام التوافق الاجتماعي بين أفراد الوسط الذي يعيشون فيه . ويظهر هذا الاحساس في كثير من العادات والأمثال المصرية فالغالبية العظمى تعتاد التوكأ على العصي وهذا دليل على أن هؤلاء الأفراد لا يثقون بأنفسهم ، وإنهم يتلمسون دائماً المعونة في شيء ما . وكثيراً ما يرددون الأمثال التي تقلل من قيمة العمل وتجعل النجاح في الحياة مسألة حظ فقط « فقيراط حظ خير من فدان شطاره » .

ولست الأغاني الشعبية بأقل تصويراً لهذا الاحساس من العادات والأمثال . فكثير منها يبدو فيه هذا الاحساس بوضوح ويبدو في مظاهر مختلفة . ففيها المجتمع قاس تسود فيه « الأندال » و « الدنيا غرورة تجيب اللي ورا قدام » والسبع أصبح يقول للكلب يا سيدى بعد أن حكمت عليه الأيام

حكمت على السبع ؛ راح للكلب عند الكوم !

لما صحنى الكلب ؟ قال له السبع : صحنى النوم !!

أنا أسألك يا رب . . . يا مجرى بحور العوم
ترجع السبع يخطر زى عاداته
وترجع الكلب ينبش فى تراب الكوم

أو

سبع الفلا دخل الغاب . وحمل الهم .
والفار بنى له جنيته ، وردها ينشم
والعم عمـلوه بدايه ، والبدايه عم
يا لله العنك يا زمان ؛ أصبحت بالهم .
تأخر ولاد السبوعه وتقدم ولاد الكلاب تحكم
شوف الكلب لما حكم قال له الأسد ياعم .
ثم ماذا ؟! ثم

من وجف حالى بدورع الشجى ما لجاه !
ولا التجيش البياته حتى فى ملجاء .
دى دنية الشوم ؛ لا خلت مال ولا جاه .
فيها الأصيل ينظم ، والنذل يتنى .
من غير ما يشجى يلاجى كل يوم مال جاه

هذه الحالة التى يرى عليها المجتمع كيف يعالجها وكيف يجابه مشاكها ؟ إنه
أضعف من أن يثبت أمامها فكيف له بعلاجها ؟! ومن ثم كان لا بد من الاستعانة
بآخرين ؛ كان لا بد له من الاستعانة بأشخاص رمزيين يأتى فى مقدمتهم « الشيخ
العالم » « وطبيب الجراح » ثم « قاضى الغرام » . فيجد عندهم الدواء الشافى أحياناً ،
وقد لا يجده أحياناً أخرى . فهو بعد أن يسأل « تاجر الود » عما إذا كان شجر
الوداد قد قل حتى انعدم أصحاب الوفاء وأهل المروءة يلجأ إلى الشيخ الذى « قلبه فى
العلوم صندل » فلا يجد لديه إلا حكمة سائرة « من عاشر النذل بعد الغندره يندل » .

يا تاجر الود . هو الود شجره قل .

ولا سواى الوداد نزحت وماءها قل .

أيام بنشرب عسل ؛ وأيام بنشرب خل .

وأيام بنلبس حرير ، وأيام بنلبس قل .

وأيام ننام ع السرير ، وأيام ننام ع التل .

وأيام بتيجى على ولاد الأصول تندل .

سألت شيخ عالم ، وقلبه فى العلوم صندل .

سند الكتاب من يمينه ؛ والتفت قال لى :

من عاشر الندل بعد الغندره يندل .

ويرى ديار حبيبته قريبة ولكن ما إليها وصول فيهرع إلى الشيخ العالم فلا يجد

عنده إلا النصيحة بالصبر حتى «يعدّلها» الله .

أقوم من النوم أقول يارب عدّها .

بلد حبيبي قصاد عين ، ومش قادر أعدى لها .

سألت شيخ عالم يفهم فى معادها

رحى الكتاب من يمينه ، والتفت قال لى :

بين الصباح والمساء ، ربك يعدّها .

أما طبيب الأجرأح فإنه يجأر إليه بالشكوى . . . الشكوى ممن؟! من «الأندال»

الذين قلبوا له ظهر الجن فكانوا السبب فيما يقاسى من شقاء . . .

أكمّ يا طبيب الجأراح م السقم كففأنى .

افتح سلاحك ، وخذم الجأرح كففأنى .

البين ضربنى على الخدين ، وكففأنى

خلأنى بعد الغندره والعزّ أندل .

حتى خللى وطى فى الطبع واندل من بعد ما كنت باركب ع العدا واندل

أدى إلى جأرى لى ، من الأندال كففأنى

ولكن هذا الطبيب الذى يستعديه على « الأندال » هو فى نظره « ندل »
مثلهم يترك جرحه بدون علاج وينكر الدواء مع وجوده .

وكان جرى إيه لو الطبيب جه لحد البيت وشافانى

دنا كنت خفيت ، ورديت مثل عاداتى وشافانى

إلا طبيب « ندل » جه لحد البيت واتخفى ، وشاف آنى

دنا جدع جد فى وسط الرجال معدود

والجرح سالت مدته جارية ، ومع دود

وادمى طبيب الجراح نكر الدوا المعدود

والرب موجود . عالم بحالاتى وشافانى

ويزداد فيه الشعور بالدونية فيحاول أن يغطيها بالحديث عن نفسه وبأنه « من

صغر سنه » وهو للرجال خدام « وأنه « يقعد فى وسط الرجال يحكى كلام مضبوط » .

وأنه مجبول على الشجاعة والحذر والدهاء حتى أنه يستطيع العبث بالحكومة

وقوانينها وهو فى الواقع أكثر الناس خشية للحكومة وأعظمهم خوفاً من القوانين .

وفى « موال الأدم » الشهير يظهر هذا الجانب النفسى بوضوح . فالأدم تلميذ

بالمدرسة يصله خبر إغتيال عمه فيعود إلى قريته مسرعاً

وراح على ابن العدو فسّخوا بأيديه

وقتل ثلاثة من اللى كانوا قاعدين حواليه

جت الحكومة تقول له : عملت كدا ليه ؟ !

قال لها « جتك خيبه يا حكومة » لما قتل عمى عملتى إيه ؟ !

ويحكم على الولد بالإعدام جزاء فعلته ولكن الأغنية تأبى إلا أن تغير الحكم

بالسجن لمدة ست سنوات لأن

أهل الولد كان عندهم المال عديّة

وكانوا كلهم بهوات وأغنيّه

دفعم للدم بدال الجنيه ميّه

ففي هذه الأبيات يتجلى مركب النقص فالفقير الشائع والإحساس به أدى إلى توهم أن المال يستطيع أن يفعل كل شيء وأن يتدخل حتى في أحكام القضاء . ويحاول « الأدهم » في سجنه أن يتعرف على قاتل عمه . فإذا ما عرفه قتله لا بحد السنن ، ولكن بطول اللسان .

وقعد معاه من الصبح للظهر طق منه مات
مكفهمش موته ، قام فســـــــــخو ياديه
ثم يعترف « الأدهم » بجريمته متحديا الحكومة والقانون
جت الحكومة تقول له يادهم عملت كدا ليه ؟ !
قال لها جتلك خييه يا حكومه لما قتل عمى عملتى إيه ؟ !
أنا قتلته يا حكومة وأنا فى سجنكم موجود ! !
والرب موجود ، مش عاوز بينه وشهود .

ويفر « الأدهم » من السجن وتحاول الأغنية بعد ذلك أن تصور مكر الأدهم ودهاءه في محاربة الحكومة فهو يعلنها بمقره ثم يقابل المأمور متخفيا في زى امرأة مرة ثم في زى « خواجه » مرة أخرى . ويسأل المأمور عن يبحث فإذا أجاب بأنه يبحث عن « الأدهم » أجاب الأدهم نفسه في خبث :

أنا لَدَهَم يا حكومه أجيبه منين ؟ !
أنا لَدَهَم مجمع م الرجال ألفين !
أنا لَدَهَم قاتل لى م الولاد اثنين .
أنا لَدَهَم بدى أشوفه وتاخذوا من عنيه عين !

وأخيراً تعجز الحكومة فتلجأ إلى أعز أصحاب « الأدهم » الذى يستطيع بخيانتته وغدره أن يقضى على الأدهم فغدر الصديق وخيانتته و « الندالة » وما يترتب عليها من آثار هي العلة الوحيدة التى يستطيع بها تبرير كل شيء . ولهذا يشير « الأدهم » وهو يلفظ نفسه الأخير .

سادس رصاصه جتْ بين القلب والضَّره .
 نزل الدم عوم ، خذله فى الحِصا جرَّه .
 قال ما مُتْ يادهم ما عدَلَكْ فى الخلايقْ جرَّه .
 أمانه يا من عشت بعدى متأمِشى للدنيا .
 ما فيهاش ولا صاحب إلا يجبلك الأذى ياديه .
 والحق عندى أنا اللى وريت ابن المره جره .

٨ - انفعال صادق

نتج عن هذا كله أن أصبحت الأغاني المصرية يشيع فيها الانفعالات الأليمة
 فهى فى معظمها شكوى وأنين ، وغدر زمان وظلم حبيب .. ف
 يابتاعة البختِ ؛ شوفى لى بختى
 ما عدش بييجى جرى إيه يا اختى ! يا وعدى عليك يا صعيدي

ثم ...

شيَّعت له جوايين ولا جواب جانى
 وديت حبيبي فين خاين يا زمانى يا بوى
 وأخيراً ...

ياللى غرامك جرحنى تعالى جنبى وريحنى .
 علشان بحبك تفضحنى يا بوا الحنَّه ، دم الغزال .

دم الغزال

ولكن هذه الأغاني وما تبعته من انفعالات تحول دون إدراك الجانب السار من
 الحياة والتمتع بمباهجها وتدفع النفس إلى نوع من السخط والتبرم ينتهى بالخضوع
 والاستسلام ... هذه الأغاني رغم هذا تمتاز بصدق الانفعالات التى تثيرها وقوتها
 واستمرارها ، فهى انفعالات منبعثة من إحساسات لا زائفة ولا مصطنعة . فإرسال
 خطابين إلى الحبيب دون وصول رد على أحدهما سبب أصيل لإثارة القلق النفسى
 إثارة حقيقية صادقة ؛ وغياب الزوج أو الحبيب شهوراً طويلة وانقطاع أخباره زمناً

أمر يبعث على اللفتة التي من مظاهرها الاستعانة « بضاربة الرمل » و« فاتحة البخت » لمعرفة سبب هذا الغياب الطويل ؛ وإنها للفتة صادرة من الأعماق حقاً ؛ لا تصنع فيها ولا رياء ثم ذلك السؤال الهادئ الرصين يلقى في لهجة عتاب برىء : « عاشان بحبك تفضحنى ؟ » سؤال فيه بساطة ترجع إلى أنه منبعث من عاطفة صادقة وإحساس عميق . وفي هذا تختلف الأغاني الشعبية الحقيقية عن الأغاني التي تصنعها العاصمة وتصورها فهي بعيدة عن القلوب لأنها لم تصدر من القلوب . فمن الذى يتأثر بقول عبد الوهاب

أحب روحى اكمن روحى بتحبك .
وأحب نوحى اكمنه بيحزن قلبك

أوصادق هو حقاً في هذا الكلام ؟! أظن لا قد تكون الأغنية رقيقة الألفاظ ؛ مشجية الألحان ، ولكنها لن تصل إلى الأعماق ، لأن المبالغة فيها ظاهرة واضحة ، والعاطفة فيها غير صادقة . وهى فضلاً عن هذا وذاك عاطفة ضعيفة ، لا روعة فيها ولا قوة ، ولا أقصد بقوة العاطفة حدتها وثورتها فقد يكون الانفعال الهادئ أعظم أثراً لإصالته وعمقه فأغنية :

منين أجيبه الحلو أبو دقة .
منين أجيبه صعيدي واترقى .

أكثر قوة وأعظم عمقاً من أغنية « ياللى نويت تشغلى ، طاوعنى وابعد عنى ، إن حبيتك ، يبقى يا ويلك ، من حبي » المليئة بالتهديد والمناداة بالويل والثبور وعظائم الأمور بغير ما سبب إلا أنه نوى أن يشغله . وكأنما أصبح الحب صفقة تجارية ، يفكر فيها أولاً ، ثم يحكم العقل هل تنفذ أم لا ... فإن رضى فيها ونعمت ، وإلا فلا داعى للحب ، ويرض من الغنيمة بالإياب .

٩ — خلاصة عامة

وبعد فقد نوهت في مقدمة هذا البحث بأنه ليس عرضاً عاماً للأغاني الشعبية ولا دراسة مفصلة لنفسية الشعب المصرى ، وإنما هو بحث موجز عرضت فيه لأهم النواحي التى يمكن أن توجه إليها العناية ، وتلخيص المظاهر الرئيسية لنفسية الشعب كما تدل عليها أغانيه . وعليه فمن العسير تلخيص هذا التلخيص ، ولكنى مع هذا سأحاول تلخيص المبادئ التى يقوم عليها وعرضها فى صورة أحكام موجزة لأدعى أنها نهائية ، بل مازالت قابلة للمناقشة والتمحيص

ثابت أن لكل أمة خواصاً نفسية ثابتة مرجعها إلى الجنس ووراثة الصفات ، يوجد بجانبها خواص من فعل البيئة ؛ ومن الجميع ينشأ المزاج العقلى للأمة .. وهو فى مصر مزاج زراعى هادىء يطبع كل مظاهر حضارة الأمة التى هى الدلالة الخارجية لهذا المزاج .

المصريون شعب مولع بالفنون الجميلة بصفة عامة ، تشهد بذلك عصور التاريخ المختلفة ، وهذا يرجع إلى نوع الحياة التى يحيمونها ، فقد تركت لهم فرصة يتجهون فيها إلى الجانب الروحى من الحياة ، ولكنهم أشد ولعاً بالغناء منهم بالفنون الأخرى وذلك لما يحسونه عن بؤس وشظف عيش ، ففى الغناء متنفس يخفف من آلامهم ولوعتهم .

حالت التعاليم الدينية السائدة دون التنفيس عن الغريزة الجنسية فاضطر الشعب إلى كبته ، ويظهر أثر هذا الكبت واضحاً فى الأغاني الشعبية ، التى كثيراً ما تقترن فيها غريزة التودد بغريزة الحنو والرعاية مما يقوم دليلاً على أن التزاوج فى مصر يقوم على أساس سيكلوجى صحيح . فاذا كانت له عيوب فلنبحث عنها فى ناحية أخرى غير الناحية النفسية .

أثرت أحداث التاريخ التى شهدتها الشعب المصرى ، والمستوى المعيشى الذى يحيا فيه على نفسيته فجعلتها نفسية جبرية تؤمن فى استسلام بالقضاء والقدر ، ويشمع

هذا في الأغاني الشعبية بوضوح وربما كان هذا الإيمان سبباً أصيلاً من أسباب انخراط المقدرة الانتاجية للشعب .

توضح الأغاني الشعبية أن الشعب المصري شديد الشعور بالنقص ، وأنه يحاول في أغانيه أن يبحث عن طريق يعوض به عن هذا الشعور . ولن ترد إلى هذا الشعب ثقته بنفسه ، وشعوره بمركزه إلا إذا ارتفع مستوى معيشته ، وحوّرت الأمراض الثلاثة التي تفتك به ... الفقر والجهل والمرض .

وأخيراً تشيع في الأغاني المصرية العواطف الأليمة التي تحول دون الاستمتاع بمباهج الحياة ، وتدفع النفوس إلى ألوان من السخط واليأس ما كان أغناها عنها لو فهمت الحياة على حقيقتها ، ونفذت إلى الصميم منها . ولكن مهما يكن من شأن هذه العواطف فهي صادقة قوية ثابتة .

Résumé

PSYCHOLOGIE DU PEUPLE EGYPTIEN D'APRÈS SES CHANSONS POPULAIRES

Par

Mohamed M. El-Sayyad

Lecteur de Géographie à la Faculté des Lettres,
Université Fouad Ier. Le Caire

Comme contribution à la Psychologie Ethnographique, l'auteur essaye de dégager les grands traits de la psychologie du peuple égyptien d'après ses chansons populaires. Il ne s'agit pas de celles lancées par les chansonniers, mais de celles, non écrites, qui se transmettent oralement dans les villages et les quartiers populaires des grandes villes.

Après avoir montré l'influence du rythme et de la mélodie sur la mentalité populaire (cris des marchands ambulants etc . . .), il divise l'Egypte en quatre régions: le Delta, la vallée, le Fayoum et le Sinaï, d'après, non le contenu de la chanson, mais du rythme et de l'instrument musical utilisés. Puis ayant montré l'importance du régime agricole dans

la détermination du caractère du peuple égyptien, il dégage, de ce caractère, les principaux traits suivants :

Amour des beaux-arts dû au genre de vie ; recours à la chanson et à la mélodie pour oublier les misères de chaque jour ; refoulement de la sexualité sous l'influence de la religion et des coutumes ; par des exemples, l'auteur montre les effets de ce refoulement et remarque que souvent l'expression érotique est accompagné d'un sentiment d'affection et de sympathie bienveillante.

Les événements historiques, l'état de servitude, l'abaissement du niveau de vie ont empreint l'âme égyptienne d'un caractère de fatalisme et d'abandon au sort. C'est à ce caractère, très visible dans les chansons, qu'est dû l'abaissement de la capacité de production du peuple égyptien. Un autre sentiment très visible est celui d'infériorité ; d'où tentative de compensation par l'expression de sentiments d'hostilité et d'agressivité vis-à-vis de la force publique. Enfin prépondérance des sentiments de détresse et de tristesse, des expressions de douleur, expressions de révolte et de désespoir à la fois.